علم الأخلاق الاجتماعى

رشوان ، حسين عبد الحميد

علم الاجتماع الأخلاقي / تأليف حسين عبد الحميد رشوان ._الاسكندريه :المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع ،٢٠٠٠.

٢١٦ص ؛ ٢٤ سم .

عرض

أمل عبد القادر

ماجستير مكتبات ومعلومات جامعة حلوان

اختصاصى ثانى مكتبات ومعلومات - جامعة القاهرة

إن أهم ما دفع الكاتب للتحدث في موضوع الأخلاق ما حسه من أن غالبيه الناس كان توجههم إلى المشكلة الاقتصادية، وليس إلى الأخلاق، وأن سلوكيات الناس وأفعالهم وأقوالهم في زماننا هذا بعيده عن الفضيلة، وأصبحت تعبر عن الشر أكثر مما تعبر عن الخير . حقيقة أن الدنيا تمتلئ بالخير والناس الخيرين ولكن كثر الأشرار فاثروا الأنانية على الايثارية وفضلوا المصلحة الخاصة على المصلحة العامة. وقد رأى بعض الفلاسفة أن مهمة الأخلاق تنحصر في وضع المثل الأعلى، والكمال الأخلاقى، فهي الدراسة المعيارية للخير والشر، ومن هنا اصطبغت الأخلاق بصبغة فلسفية ذاتية شخصية. وأصبح هدف كل فيلسوف أن يتبنى مذهبا أخلاقيا يعارض به الأخلاق القائمة. واعتبر البعض الآخر من الفلاسفة أن الأخلاق علم يقف على قدم المسأواة مع علم المنطق ، وعلم الجمال. أما علماء الاجتماع فقد نظروا إلى الظواهر الأخلاقية باعتبارها ظواهر اجتماعية يمكن التعرف عليها. بما لها من صفات خاصة يمكن ملاحظتها وتحليلها وهذا هو المنهج العلمي .ومن هنا ظهر فرع من فروع علم الاجتماع يطلق عليه «علم الاجتماع الأخلاقى» . والواقع أن الباحث الاجتماعي لا يستطيع أن يسقط من حسابه تصورات الفلاسفة، ونظريات علماء الأخلاق وهو يدرس الوقائع الأخلاقيه؛ إذ تعد هذه التصورات بمثابة وثائق هامة تكشف عما يدور بباطن الضمير الخلقي في عصر من العصور ؛ لأن الأخلاق ليست علما كعلم الفلك أو الكيمياء أو الطبيعة أو الرياضات ،ولكنها أفعال واقوال تصدر عن الإنسان.فإذا أعلن المتصوف أن الخير الأسمى هو الفناء في الله، واذا كتب المورخ أن حرق نيرون لمدينه روما كان عملا شائنا، وإذا قالت الا لطفلها

يجب الاتكذب بتاتا،فهذه كلها صيغ تدل على اتجاهات خلقيه. والأخلاق موجودة طالما هناك تمييز في أي شكل من الأشكال بين الخير والشر، فالإنسان تصدر عنه أحكام متنوعة، فإذا قال: المبتدأ مرفوع؛ فهذا حكم نوعى الأخلاقي . وإذا قال: الأجسام تتمدد بالحرارة؛ فهذا حكم طبيعي الأخلاقى. أما الحكم الأخلاقى فهو أن نحكم على الشي بأنه خير أو شر، فقولنا الصدق خير والكذب شر حكم أخلاقى.

ولنعلم أن الأخلاق تسرى على جميع أنواع النشاط الإنسانى ولا يخرج عن حكم الأخلاق أي نشاط بدني أو عقلي أو فني فالفنان الذي يجافى بفنه التقاليد الخاصة باللياقة والحياء يتصدى لمبادئ الضمير الخلقي، والعالم الذي يكرس جهوده العلمية للتخريب والضرر باخوته في الإنسانية يكون قد خرج على القانون الأخلاقي وان كانت بحوثه ذات قيمة كبيرة من الناحية العلمية. أما التربية الأخلاقية بالذات فهي التدريب على السلوك الطيب وتكوين العادات الصالحة ولذلك فان صلتها بعلم الأخلاق وثيقة ،فمن المتفق عليه أن المربى إذا عرف قواعد الأخلاق ونظرياته واستطاع أن يدرك الحكمة الكامنة وراء كل مذهب من المذاهب الاخلاقيه المتعددة فانه يستطيع أن يختار منها ما يلائم الحالة الاجتماعية والطبيعة التي تتحقق في تلاميذه.وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤال مؤاده هل تعتمد الأخلاق على القدرة العقلية وحدها .نقول لا- اللهم ألا إذا وافقهما صفه الحق، فالحق هو الذي يضمن لصاحبه الاحترام والتعظيم، وتحمل غيره على الثقة به.وهذا هو أساس كل فضيلة.

هذا وقد اختلفت الأراء وتشعبت حول موضوع الأخلاق ،فها هو بسكال يقول: إن الأخلاق هي علم الإنسان باعتبار أن الأخلاق تميز الإنسان عن غيره من الكائنات. ويعد هذا التعريف تعريفا فضفاضا، كما أنه يخلط بين الأخلاق وبين الانثروبولوجيا والتي هي علم الإنسان. أما سنبسر فيعرف الأخلاق بأنها «العلم الذى يبحث في النشاط الإنساني من حيث ما يحققه هذا النشاط للآخرين من نتائج مفيدة أو ضارة. وان كان هذا التعريف أكثر تفصيلا من سابقه، إلا أنه يخلط بين النشاط الأخلاقي المنزه عن الغرض، وبين اوجه النشاط النفعية.

أما الأخلاق فهى تتعلق دائما بما ينبغى أن يكون، واحكامها تقديرية، وأقرب إلى فكر عقلى يدور حول الخير والشر. فقد أعتنت الفلسفة الأخلاقية بتعريف الخير الأسمى للإنسانية، ووضع معايير العدالة والحق والواجب والفضيلة والمسئولية، ومعرفة الخير والشر ،فنحن نقول مثلا العدل خير، والظلم شر، واداء الدين إلى صاحبه خير وإنكار المدين ما عليه شر. أن الإنسان لايلام على عمل عمله يريد منه الخير مهما ساءت نتائجه، بشرط أن يكون قد بذل جهده في معرفة ما ينتج عن عمله،

وانما يلام إذا كان في استطاعته أن يرى النتائج إذا دقق في البحث وأنعم النظر ثم لم يفعل، فموضع اللوم هو التقصير عند اختيار العمل، وعدم الدقة في حساب نتائجه، وليس موضع اللوم هو إرادة العمل الصالح .

واستخدم المؤلف ثلاثة وستين مرجعا؛ منها أربعون مرجعا عربيا يقف على قمتها الدكتور / السيد محمد بدوي، ومنها كتابه بعنوان «الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع» الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية،١٩٩٥. وكذلك كتب الأستاذ الدكتور / قبارى محمد اسماعيل، وعلى رأسها كتاب «قضايا علم الاخلاق»- دراسة نقدية من زاوية علم الاجتماع. وقد استخدم المولف منهج المقارنة؛ ذلك أن طبيعة الموضوع تقتضي أن يقارن بين المبادى الاخلاقيه التى قال بها الفلاسفة، ونظريات علماء الأخلاق وهو يدرس الوقائع الأخلاقية؛ إذ تعد هذه التصورات بمثابة وثائق هامة تكشف عما يدور بباطن الضمير الخلقى فى عصر من العصور. إن مهمة الأخلاق تنحصر فى وضع المثل الأعلى والكمال الأخلاقى، فهى الدراسة المعيارية للخير والشر، ومن هنا اصطبغت الأخلاق بصبغه فلسفيه ذاتية شخصية، وأصبح هدف كل فيلسوف أن يتبنى مذهبا أخلاقيا يعارض به الأخلاق القائمة. والأخلاق مادة لعلم الاجتماع؛ ذلك أن علم الاجتماع يهتم بسلوك الجماعات، فإذا ما أردنا أن نحدد موضوع علم الظواهر الأخلاقية، فينبغى أن نقوم أولا بتحديد العنصر الاجتماعي في كل عقل أخلاقى. والأخلاق بطبيعتها أقرب العلوم إلى الدين، فهناك علاقة وثيقة بين السلوك الأخلاقي والعقائد الدينية ؛إذ تشترك الأخلاق مع الدين في تعلقها بالإنسان وتنظيم حياته وسلوكه. كذلك فان الأوامر الإلهية ليست متعلقة بشعائر تعبديه فحسب ، ولكنها تنطوي كذلك على فضائل أخلاقية. كما أن المحظورات الدينية فى واقع الأمر تدل على دلالات أخلاقية. وقد اقترن الإيمان في القران الكريم بالعمل الصالح ؛كشرط للثواب؛ مما يعد دلاله على وجود وشائج بين الإيمان والأخلاق. وتظهر الأخلاق فى السلوك فالأخلاق فى أرقى أشكالها هي إرادة الفرد ألتي تعمل تحت مظالة الدين، والأدب، والعقل. وبالأخلاق يختار المرء سبله في الحياة بترو، ويثابر عليها جاعلا الواجب فوق الشهرة، وإرضاء الضمير فوق المدح والثناء. وتعد روح المرء الدعامة القوية في تكوين أخلاقه، فان تلك الروح وحدها هي المعول عليها في الحياة وهى التي تبعث في المرء النشاط وتمده بالاستقلال والقوة. أما القوة بلا استقامة ولاروح للخير فقد لا يكون وراءها سوى الشر، ومن ذلك قول نفالس في كتاب له في الأخلاق إنه لاخطر على الكمال الأدبي إلا القوة المتناهية في الشدة والحياة المتناهية في القوة فانهما أرقى ما تصل إليه الأمم الوحشية، ولاينقصهما سوى شيء من الغرور والأنانية. وقد جاء في بعض الحكم أن الرجل القوى يمهد لنفسه

السبل ولايقتصر القوى الإرادة، الشريف النفس، على تمهيد السبيل لنفسه، بل يقود غيره معه، ولكل فعل من أفعاله قيمة؛ فهو يهدى إلى النشاط والاستقلال والثقة بالنفس.

وقد قسم المؤلف هذا الكتاب إلى عشرة فصول تناول الفصل الأول ماهية الأخلاق، وتعريفها وتعرض لمختلف التعريفات، وخصائص الأخلاق وهل الحاسة الخلقية غريزية أم مكتسبة؟ وإلى ارتباط الأخلاق بالعلوم والظواهر الانسانيه والدين، فهناك علاقة وثيقة بين السلوك الأخلاقي والعقائد الدينية، إذ تشترك الأخلاق مع الدين في تعلقها بالإنسان وتنظيم حياته وسلوكه. كذلك فان الأوامر الألهية ليست متعلقة بشعائر تعبدية فحسب، ولكنها تنطوي كذلك على فضائل أخلاقية. كما أن المحظورات الدينية تحتوى في غالبية الأمر على دلالات أخلاقية. وقد أورد الفضائل في الفصل الثاني، وتطرق إلى طرق غرس الفضائل. أما فى الفصلين الثالث والرابع، فقد ألقى الضوء على أصول الفكر الأخلاقي في الفلسفة اليونانية القديمة، وأيضا الحضارة الرومانية، ثم بدا التحدث عن الأخلاق والسلوك في الشرائع السماوية المختلفة؛ فالأخلاق في أرق أشكالها هي إرادة الفرد التي تعمل تحت ظابط من الدين والعقل، وهو ما تحدث عنه المؤلف في الفصل الخامس إلى الفصل الثامن. وبالأخلاق يختار المرء سبله في الحياة بترو، وتبصر، ويثابر عليها جاعلا الواجب فوق الشهرة، وارضاء الضمير فوق المدح، والثناء، ولا يزال محافظا على قدره واستقلاله مع رعاية أقدار غيره ولا يزال يملك من العزم ما يحمله على أن أكون مخلصا في صفاته ألادبيه، وأن لم يكن مقبولا عند جمهور الناس في أول أمره، فما عليه إلا الصبر يخبره الناس على اعترافهم بقيمته. ولاشك أن المرء لن يصل إلى ذروه كماله؛ إلا إذا ما اتحدت عناصر الأخلاق بالإراده القوية، وحملت الأغراض الراقية والمثابرة المرء على القيام به. وقوه الإراده روح لكل من كان عظيم الأخلاق، فإن وجدت قوه الإراده وجدت معها الحياة وان فقدت فهناك الضعف واليأس.

وفى الفصل التاسع أشار إلى المذاهب الوضعية لعلم الاجتماع الأخلاقي التى ظهرت مع بداية القرن التاسع عشر كمحاولات متفرقة لإقامة أخلاق تقوم على أسس علمية، وتستند إلى الوضعية، وتستقل عن نظريات الفلاسفة، ويرى أصحاب هذه المدارس أن الفلاسفة هم الذين يقررون قواعد السلوك، ويحددون صيغها ويضعون لها أسسا عقلية. أما هم - أى الوضعيون - فيتجهون إلى العلم، ويعتبرونه الوسيلة الوحيدة للمعرفة العلمية. ويقرر الوضعيون أن الظواهر الأخلاقية لاتقوم على الخيال والتأمل، وإنما يمكن النظر إليها على أنها حقيقة موضوعية، تستند إلى المشاهدة والوصف الدقيق والمحدد، باعتبار أنها قائمة بالفعل؛ فهى تنبذ ما ينبغي أن يكون، على اعتبار أن ما ينبغى أن يكون لا أساس له من الواقع، كما أنه من قبيل الوهم الذي ينكره

الروح الوضعى. والأخلاق الوضعية هي أخلاق حقيقية وواقعيه لأنها تستند إلى التجربة وهى وضعية بمعنى أنها ليست مطلقة، ولكنها نسبية، لأن المطلق بالنسبة للمذهب الوضعي لاوجود له، إنما يحدد عن طريق القواعد العامة السارية فعلا في مجتمع ما، والتى يتصرف الأفراد بمقتضاها. وفى ضوء المذاهب الوضعية تفسر المبادىء الأخلاقية، والنفور أو حكم الإدانة، ومشاكلهما في ضوء التجربة أو المنفعة، أو ترد إلى أسباب مادية أو اقتصادية أو تاريخية تطورية أو بيولوجية أو سيكولوجية أو اجتماعية. وتحدث أيضا عن الفضائل في الإسلام وتشتق كلمة الفضيلة في اللغة العربية من الفيض وهى حاله كمال النفس حيث تناولها إذا اعتدلت، وكانت وسطا، فلم تجنح إلى الإفراط أو التفريط. فالنفس إذا غالت في الترهبن والعزلة بدعاوى التزهد في الدنيا، وزعمت أنها تبتغى دار الآخرة فلا تجتهد ولا تجاهد في الدنيا، فأنها تظلم نفسها، وقد خرجت عن الوسط العدل، والخير الفاضل في الدنيا والآخرة.. ويتبين من ذلك أنه من الواجب اتخاذ طريق الوسط العدل، فهو المواكب للطبيعة الإنسانية. وهى تعنى الزيادة، وعكسها الرذائل، وتعنى الجذب والفضيلة هي الخلق الطيب، ومنها واجبات الإنسان وحقوقه، والصدق، والشجاعة، والعدل، والطاعة، والاعتماد على النفس، وضبط النفس، والقدوه الصالحة تعين على غرس الفضائل؛ لأنها تثير الشعور وتحيى الضمير. والصديق يؤثر في صديقه خيرا كان أو شرا. واشار الكاتب إلي أصول الفكر الأخلاقي وتطوره عبر التاريخ ابتداء من مصر القديمة تحت حماية الدين، وعد الظلم رذيلة، والعدل يمثله اله الشمس، أما العقيدة البوزية في شمال الهند، فقيمة الطريق الوسط تحقق السعادة، الروحية والفضيلة وسط بين الإفراط والنقص، ويرى كونفشيوس انه على الحاكم أن يبدا بوضع نفسه موضعها الصحيح، وإذا تم ذلك لن تجرؤ الرعايا عن الانحراف عن الحق. وفى الفلسفه اليونانيه القديمة ظهرت أفكار سقراط، وأفلاطون، وهو يمثل قمة التحليق في عالم المثل للوصول إلى حقيقة «الخبر الأسمي» والفضيلة عند أرسطو هي «الاعتدال» أو هي «الوسط العدل» وفى الحضارة الرومانية لم يحاول الرومان معرفة المثل العليا، أو إرساء أخلاقهم على أسس فلسفيه وانما ترجع اصاله تفكيرهم إلى الدور الكبير الذى لعبته أوربا في تطبيق المبادى القانونية والسياسية والادرايه تطبيقا علميا في الشعوب التى أخضعوها. أما في الشريعة اليهودية والمسيحية فقد جاءت شريعة موسى عليه السلام شاملة بعض المبادى التي تعطى للفرد قيمته وتدعو الى رعاية المرضى، وتحث على الاتحاد، والنظافة، واعتبرت الشريعة ثروه الفرد ملك لله فيجب رعايتها وصرفها فيما يعود على الجماعة بالخير، ولتنظيم الإحسان أوجدت اليهودية نظام العشور، وارتبطت اليهودية التلموديه بالربا والبغاء. ونظمت الشريعة اليهودية العلاقات

الزوجية وسمحت اليهودية القديمة بزواج الرجل من أختين. أما الشريعة المسيحية فانتهجت طريق التسامح والعفو، وجعلت الخير أساس الأخلاق والفضيلة وجاءت المسيحية بفكر المساواه بين الأفراد. والزواج في المسيحية عقد مقدس وتجعل المسيحية للعزوبية قيمة كبيرة. وقد أخذت المرأة بعض حقوقها الاجتماعية والاقتصادية. أما الأخلاق عند المسلمين فأصولها الحكمة والشجاعة، العفة. والعدالة تشمل كل فضيلة، وضرب أمثلة بالفضائل عند المعتزلة الصوفية والغزالى. وتتميز الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق التي تبنتها الفلسفات اليونانية، فالإسلام نظامه الأخلاقي، وفضائله مميزة عن الأخلاق الفلسفية، فغاية الأخلاق في الإسلام ليست اللذة أو السعادة، بل السعادة الأخروية من خلال المنفعة العامة الدنيوية التي تصون الروح وتعنى بالجسد. وأخلاق المسلمين نابعة من القران والسنه والإجماع والقياس . وقد راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الآداب، فكان مثالا أعلى لها ، وعمل على تأديب أمته لها .وقد أثنى الله تعالى عليه في قوله:﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم،الأيه :٤) ومن حديثه(ص) :«إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق».

ولقد جاء رجل إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام من بين يديه، فقال يا رسول الله، ما الدين؟ قال: حسن الخلق، ثم أتاه من شماله، فقال: يا رسول الله ما الدين فقال :حسن الخلق ، ثم أتاه من ورائه، فقال يا رسول الله؟ ما الدين فالتفت إليه وقال : أما تفقه؛ هو أن لا تغضب . وقيل لرسول الله، ما الشؤم؟ قال: سوء الخلق .

هذه بعض أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلينا نحن المسلمين أن نتخلق بأخلاقه ، وأن نقتدي به في سلوكه وأفعاله. وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت؛ فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا. وغاية الأخلاق عند فقهاء المسلمين أن تصدر الأفعال عنها بلا كلفة، ولكن بصناعه وترتيب تعليمي _ أي يفهم لما نفعل والا سباب ما نفعل . وتعرض المؤلف بعد ذلك لعصر النهضة متمثلا في المذهب الأخلاقي عند توماس هوبز الذى بنى مذهبه على أساس مادي ونفسي، ورأى أن كل شىء في العالم بما في ذلك الموجودات البشرية، وعقولها يجب تفسيرها بواسطة المادة المتحركة. وقد امتدت نظريته هذه إلى سائر فلسفته ومنها الأخلاق. أما جون لوك فقد رفض الحق الإلهى المطلق للملوك ،والذي نادى به توماس هوبز، فأفراد الأسرة المالكة لا يولدون ومعهم حق إلهى أو فطرى لحكم الناس،إذ يولد الناس أحرار والمساواة بينهم مطلقة .ومع ذلك فقد بدا لوك في نفس الخط الذي ابتدأ منه هوبز بافتراض وجود حالة الفطرة كمرحلة سابقة على المجتمع المدني. إلا أنه يختلف عنه في وصف الحالة الطبيعية، ففي رأيه أنها لم تكن حالة من الفوضى والعدوان والعنف والقتال، ولم يكن

مجال حاله حرب واضطراب، كما لم تكن مرحلة سابقة على المرحلة الاجتماعية بل كانت مرحلة خير وسلام، وهذا التحليل يتفق مع أصول الديموقراطية.

أما الأخلاق في الفلسفة الحديثة تتميز بتعدد ما تولد خلاله من الفلسفات والأيديولوجيات، والتيارات الفكرية المتباينة ، وهى تتنوع، وقد تتعارض مع بعضها البعض، ويرجع هذا إلى ما تميز به هذا العصر من انتفاضات وثورات دينية وعلمية وتكنولوجية وسياسية. وقد اقترن انهيار وتدهور المؤسسات التي كانت سائدة في العصور الوسطى وتدهورها بانطلاق الفرد، وتحرره من شرائع الإقطاع، وسيطرة الكنيسة، وتعميق وعيه بفرديته. وقد انعكس ذلك على الفيلسوف الحديث الذي نظر إلى العالم من ناحية الذات ، ومن زاوية «ألانا»، ومن ناحية العقل والشعور. نتج عن هذا إيذانا بقيام الدولة القومية التي تميزت بوجود سلة واحدة وأدت هذه الظروف إلى انطلاق الفرد، وتحرره من شرائع الإقطاع، وظهر الفيلسوف الحديث الذي يؤمن بالذات، والأنا، والعقل والشعور، وضرب أمثلة لذلك بالفيلسوف ديكارت، وجان جاك روسو، وهيجل، وكانط. وتتبع المؤلف المذاهب الوضعية والمدارس الممهدة لعلم الاجتماع الأخلاقي في القرن التاسع عشر عند ظهور مدارس تقيم الأخلاق على أسس علمية، وتستند إلى الوضعية ، وتستقل عن نظريات الفلاسفة، فالظواهر الأخلاقية لا تقوم على الخيال والتأمل، وإنما يمكن النظر إليها على أنها حقيقة موضوعية، تستند إلى المشاهدة والوصف الدقيق، والمحدود باعتبار أنها قائمة بالفعل.

فى ضوء هذه المذاهب الوضعية التي تفسر المبادىء الأخلاقية، والنفور أو الحكم بالإدانة، ومشاكلهما في ضوء التجربة أو المنفعة، إلى أسباب اقتصادية /مادية، أو تاريخية تطورية ، أو بيولوجية أو سيكولوجية أو اجتماعية، وهكذا وعند إلقاء الضوء على الأخلاق من المنظور الاجتماعي، نجد اعتراض علماء الاجتماع على الأخلاق الصورية حيث خرجوا على ميتافيزيقا كانط للواجب المطلق، وقرروا أن كل فرد منا يتلقى ضميره الأخلاقي من الوسط الاجتماعي الذي يعيش فى. كذلك فإن الحكم على أفعال الإنسان لا يأتي من خلال ضميره فحسب بل من ضمير المجتمع، فالتيارات الخلقية ترجع إلى أصولها الاجتماعية. وعلم الاجتماع يحاول أن يحرر الأخلاق من كل نزعة ذاتية عاطفية، ومن ثم فهو لا يدرسها كما يدرسها الفلاسفة، وإنما يدرس دراسة وضعية أنواع السلوك التي يسلكها الناس في بيئة معينه وفى عصر معين، ويتمثل ذلك في القوانين السائدة، والعادات المتبعة، والتقاليد المتوارثة، والأمثال الشعبية، والحكم المتوارثة، والأعمال الأدبية.

أما المنهج الذي يستخدمه عالم الاجتماع في دراسة المبادىء الأخلاقية، فهو ليس منهجا

استنباطيا، ولاحسيا، أو تامليا نظريا، وإنما هو منهج كمى استقرائي، يستند إلى الملاحظة والتجربة. ويستهدف عالم الاجتماع بهذه الدراسة، واستخدام هذه المناهج الوصول إلى القوانين التي تحكم هذه الظواهر وتنبئنا بما سيحدث في المستقبل. وهو ما جاء في الفصل العاشر والأخير أن الأخلاق ظاهرة اجتماعية لها أصولها ومصادرها الاجتماعية، ومن ثم فهي ليست مطلقة، وإنما تتسم بالوضعية والنسبية، وتختلف باختلاف الزمان والمكان، فما هو أخلاقي وفاضل في ثقافة قد لايعد كذلك في ثقافة أخرى. وعلى ذلك تنحصر الوسيلة الأساسية لتحسين الأخلاق في الإقلاع عن التناقض والتردد والتشتت التي تصيب أغراضنا. ويأتي ذلك عن طريق ربط عاداتنا العقلية والخلقية والعلمية ببواعث خارجية. وأول هذه البواعث وجود الإنسان في المجتمع ،واتصاله المستمر بأفراد أسرته؛ مما يتيح له فرصة التدريب على الايثار وإنكار الذات . ولكي يكتب البقاء لانسجام النفس يجب أن يبدو لها هذا الانسجام كما لو كان قائما على أساس العقل، وعلى أساس نظام الكون. ويضاف إلى ذلك أن المرء يجد أن العواطف الخيرة هي في ذاتها منبع الرضا والغبطة ، وأن هذا الرضا لا ينضب. فالمرء يسأم من التفكير، ولكن لا يسأم من المحبة. استنادا إلى تلك الأسس الوضعية والنسبية، صدرت أصول المذهب الاجتماعي في دراسة الأخلاق، وتحولت الأخلاق في مجال الواجب، والمطلق في مجال الحادث والنسبى، ومن ميدان ما ينبغى أن يكون إلى دراسة: ماهو كائن بالفعل. وقد أرسى هذا المذهب «أوجست كونت» وأكمل جهوده «أميل دور كايم»، ثم ظهرت كتابات «ليفى بريل» و«البيربابييه» حيث انشغل كل منهم بمسألة أو عدد من المسائل الخاصة بالمشكلة الأخلاقية، واعتمدوا على الملاحظة العلمية وطرق البحث العلمي. فتارة تبحث هذه الفلسفات عن المبدأ الأخلاقي في ذات الله، والإرادة الإلهيه ، وتارة أخرى تضعها في الضمير، أو فى العقل، وطورا يكون الشعور الإنساني مصدرا للأخلاق، وتارة تكون اللذة، أو المنفعة الخاصة.

إذن فإن علم الأخلاق يحاول أن يحرر الأخلاق من كل نزعه ذاتية عاطفية، ويحقق هذا العلم تتبع أصول وتطورها الظاهرة الأخلاقية باستخدام المنهج العلمي، وذلك عن طريق دراسة المفردات، ومن خلال الآداب، والحكم، والأمثال، ومظاهر الفن والقوانين والتشريعات؛ مما يمكن من تقنين القواعد العامة، تماما كما تعالج العلوم الطبيعية سائر الظواهر الفلكية والفيزيقية. ومن ثم فإن علم الاجتماع يحاول أن يحرر الأخلاق من كل نزعه ذاتية عاطفية على أسس علمية وتستند إلى الوضعية، فهو لا يدرسها كما يفعل الفلاسفة، وإنما يدرسها دراسة وضعية مستخدما مناهج كمية استقرائية، ومستندا إلى الملاحظة والتجربة، محاولا الوصول إلى القوانين التى تحكم هذه الظواهر وتنبئنا بما سيحدث في المستقبل.